! !

تأملات في آية الاستخلاف

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]

.منذ هذا المشهد الأول، رُسمت خريطة الانحراف الإنساني في ثلاث درجات: غفلة، ثم ضعف، ثم علوٌّ واستكبار

.وبين هذه المراتب يظهر الفارق بين ذنبٍ يبقي صاحبه في دائرة العبودية، وآخر يخلع عنه رداءها ويفتح باب الفسق

- أولًا: الغفلة والسهو

لم تعصِ الملائكةُ ربَّها، وإنما حدّثت نفسها استغرابًا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾؛ فنبّههم الله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فعادوا .إلى التسليم الكامل: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾

.هذه غفلة تعليمية لا اعتراض فيها ولا تردّد، ودواؤها العلم والذكر والتسليم

- ثانيًا: الضعف والشهوة

:هو ذنب من يعرف الحقّ، لكنه يُغلب أحيانًا، إمّا بـ

.ضعف الإرادة: تهاونٍ في أداء الأوامر أو ترك المحرمات

.غلبة الشهوة: ميلٍ إلى محبوبٍ محرّم يغلب العزم ويستدرج النفس

.وفي الحالين، يعصي العبدُ ربَّه لكن لا يخرج عن دائرة العبودية؛ يندم ويستحيي ويعلم أن نفسه سوّلت له

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: 17]،

.أي يذنبون عن ضعفٍ وغلبة نفسٍ لا عن عنادٍ واستكبار

:ويكأن العبد في هذه الحال يقول في سرّه ولسان حاله

.يا ربّ، ما عصيتُ استخفافًا بقدرك، ولكن سَوَّلَت لي نفسي، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنتُ من الظالمين

فهذا الذنب لا يقطع الحبل بين العبد وربه، بل يزيده خضوعًا وحياءً، وعلاجه يسير: الاعتراف والتوبة، ما دام القلب حيًّا .خاشعًا

- ثالثًا: العلوّ والاستكبار — بوّابة الفسق

. ”الخطر ليس في الضعف نفسه، بل في تبرير الذنب وتأويله: أن يجعل العبد هواه “حكمة”، وتقصيره “وجهة نظر

.هنا يتحول الضعف إلى شبهة، والشبهة إلى فسق

والفسق في لغة العرب: فسقت التمرة أي خرجت من قشرها وبدأ فسادها؛

.فكذلك القلب إذا برّر ذنبه خرج من غلاف العبودية وبدأ فيه الفساد

.فما عاد الذنبُ ذلًّا يورث توبة، بل رأيًا يورث جدالًا

:هذا هو منطق إبليس حين قال الله له

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ؟﴾ [ص: 75]

أي: أَتَكَبَّرتَ على الأمر، أم تعاليت على الآمِر؟

فكانت خطيئته خروجًا من غلاف الطاعة إلى فساد القلب،

.ومن هنا يبدأ الفسق، وهو بوابة الشرك والعياذ بالله

- كيف يُحرَم العبدُ الهداية وهو الرحمن الحليم؟

يبقى الله سبحانه رحيمًا حليمًا ما دام العبد يذنب وهو منيب،

.لكنّ عدل الله يقتضي أن من أصرّ واستكبر وبرّر معصيته بعد قيام الحجة، يُحرَم النور والهداية

:قال تعالى

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]،

.﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: 26]

.فالهداية تُمنح أولًا، ثم تُسحب عدلًا إذا أصرّ صاحبها على الإعراض

:ومَن استكبر بعد البلاغ والآيات والحلم الطويل، يعاقبه الله بأن يطبع على قلبه فلا يرى النور بعده أبدًا

.﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]

وهكذا يكون الضلال جزاءً من جنس العمل، يقع بعد الإعراض لا قبله،

فكما أعرض العبدُ عن النور باختياره، أعرض الله عنه بعدله،

.وكما استكبر الفقير على مولاه الغني الكريم، كان من تمام العدل أن يُجازى بالحرمان

.فهذا هو العدل الإلهي المطلق الذي لا يظلم مثقال ذرة، بل يُجازي كلّ قلبٍ بما وقر فيه

- كمال الجلال والجمال

.الله توّابٌ رحيمٌ حليمٌ بمن أذنب ولم يخلع رداء العبودية؛ يفتح له أبواب الرجوع ويأخذ بيده إلى النور

.لكنّه شديدُ العقابِ جبارٌ متكبرٌ على من نازعه الكبرياء واستعلى على أمره

.ولو لم يُعاقِبِ المستكبرَ، لكانت الرحمة بلا عدلٍ نقصًا في الكمال، وحاشاه

فلا يتم كمال الجلال إلا بالجمال،

ولا يكتمل الجمال إلا بالجلال؛

.فهو سبحانه الرحمن الرحيم، وشديد العقاب الجبار المتكبر، وكلا الوجهين كمالٌ لا نقص فيه

دعاء

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وذكّرنا إذا غفلنا، وثبّت قلوبنا إذا ضعفنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللهم لا تحرمنا نور الهداية بذنوبنا،ولا تجعل في قلوبنا كِبرًا يصرفنا عن أمرك، واجعلنا من عبادك التائبين الخاشعين،

الذين إذا أذنبوا استغفروا، وإذا أُمروا سجدوا، وإذا ذُكّروا خضعوا،

.برحمتك يا أرحم الراحمين